في الشؤون العربية

في مؤتمر التضامن الأفريقي الآسيوي

بقلم رئيف خوري

مؤتمر تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية الذي عقد في مدينة القاهرة بين ٢٦ كانون الاول ومستهل كانون الثاني كان تعبيرا رائعا عن اعمق الاماني التي تخفق بها جوانح اكثر من ثلثي البشرية . ذلك بان هذا المؤتمر العظيم قد ضم وفودا كبيرة ، رسمية وغير رسمية ، تمثل ستا واربعين دولة ، يقطنها اكثر من الف وخمسمائة مليون انسان ! واتفقت كلمة هذه الوفود جميعا على بيان باسم المؤتمر ايدت فيه مبادىء باندونغ العشرة ، وعلى نداءين يطالبان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة البريطانية وعلماء العالم اجمع ، بتحريم الاسلحة الذرية . وفي الوقت نفسه اتفقت هذه الوفود على مقررات وتوصيات ، سياسية واقتصادية واجتماعية وعمالية وثقافية ، وعلى اقامة هيئة دائمة تتخذ اليوم مركزها مدينة القاهرة ، وتسعى لتنفيذ مقررات المؤتمر وتوصياته .

ولن نعمد هنا الى سرد تلك المقررات والتوصيات الخطيرة التي انتهى اليها المؤتمر باجماع الوفود بعد مناقشات حرة طبقت فيها اساليب الديموقراطية . فقد تناقلت هذه المقررات اكثر من صحيفة سيارة ، ولكن حسبنا ان نقول ان هذه المقررات والتوصيات انصبت كلها في اتجاه واحد هو ارساء السلام والتفاهم العالميين على دعائم ثابتة ، والغاء الاستعمار والعدوان والاضطهاد في ايما صورة ، واطلاق سبل الحرية والسيادة والتقدم لجميع الشعوب . وهكذا يصبح من الحق ان نقول ان هذا المؤتمر حين عبر عن اماني ثلثي البشرية اعرب في الوقت نفسه عن اماني البشرية بأسرها .

واذا كان هذا المؤتمر لم يسلم من الحانقين فان هؤلاء لم يوفقوا الى شيء سوى الكشف عن مدى تضايقهم من كل خطوة تخطوها الشعوب في سبيل الخلاص منهم ...

وطبيعي ، ان تكون القضايا العربية رأس ما يعنينا من هذا المؤتمر ومقرراته وتوصياته .

لقد اثبت هذا المؤتمر ان القومية العربية ، وفي طليعتها مصر ، أصبحت قوة فاعلة في السياسة العالمية ، وان القومية العربية ، ومصر في طليعتها ، غير معزولة ، بل هي واجدة اصدقاء أقوياء في هذا المنهج الذي تنهجه ، اي : التحرر والحياد الايجابي . فلا طوق خانق بعد اليوم !

وعبثا تبوق الابواق بان المؤتمر شيوعي سيطر عليه تمذهب معين . فالمبوقون انفسهم يعلمون بانهم كاذبون ، ولذلك ضعفت اصداء ابواقهم في النفوس . ويعلمون اننا لسنا نحن المسؤولين — ان كان ثمة من مسؤولية — عن وجود الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية وغيرهما ، وان من السخف ان نتجاهل وجودهما ، كما اننا لا نتجاهل الولايات المتحدة الاميركية أو المملكة المتحدة البريطانية او غيرهما ، بل نقف من هذه الدول جميعا موقفا بعيدا عن السلبية حين يتسع فهمها لحقوق العرب والشعوب عامة في الاستقلال والسيادة والتحرر والتقدم .

ولقد ايد المؤتمر شعب الجزائر في نضاله للتحرر من الاستعمار الفرنسي وكل استعمار ، وايد مطالب الشعب اليمني في عدن والمحميات ، ومطالب البحرين والخليج في الاستقلال ، وصرح بحق العرب في خليج العقبة لانه مياه عربية اقليمية ، ودعا الى وجوب وقف الحرب العدوانية في عمان ، والى تمكين المغرب من استرجاع جميع مناطقه التي ما زال يسيطر عليها الاستعمار . وذلك كله كسب معنوي لقضايا عربية حيوية ! كسب كبير ما كنا لنفوز به لولا هذا المؤتمر ولا كانت تلك القضايا العربية الحيوية لتطرح على الشعوب بوصفها قضايا ملحة تتصل بالتحرر والسلام العالمي أوثق اتصال .

اما قضية فلسطين — القضية التي لا تمكن المبالغة في مقدار خطورتها ! — فان الوفود العربية قد احرزت انتصارا كبيرا حين اقنعت المؤتمر بأن يتخذ في موضوعها هذه المقررات بالاجماع :

« ١ — يثني المؤتمر التقرير المرفق من وفد فلسطين عن هذه القضية .

٢ — يعلن المؤتمر ان دولة اسرائيل قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الاوسط وسلامته ، ويدين سياستها العدوانية التي تكون خطرا على السلام العالمي .

٣ — يؤكد المؤتمر ان حقوق العرب في فلسطين ، ويعلن عطفه على اللاجئين الفلسطينيين ، ويؤيد جميع حقوقهم وعودتهم الى وطنهم . »

ونحن من ابعد الناس عن التقليل من قيمة هذه المقررات وما تضمنت من الحكم على اسرائيل حكما قاطعا في مصلحة العرب . وما نحن ممن يعتبرون ان عروبة فلسطين يمكن ان تخدمها المزايدة في الكلام .

ومع ذلك ، اننا لا نجد السبيل الى موافقة الذين يعتبرون هذه المقررات — على عظم اهميتها — توضح القضية الوضوح الذي ينفي كل امكان للغموض والابهام .

فدولة اسرائيل هي في وجودها ثمرة عدوان . انها قامت حيث تقوم ، بهجرة مصطنعة هيأ لها الصهيونيون تحت ظل استعمار تنعم بحمايته ، وبحراب هذا الاستعمار احتلت ارضا في فلسطين وشردت مليون لاجىء عربي ، اقتلعتهم من ارضهم وبيوتهم اقتلاعا . ولا عبرة بهذا الحق التاريخي الذي تذرعت به اسرائيل . فالعرب الذين عربوا فلسطين منذ ثلاثة عشر قرنا لم يأخذوها من اسرائيل . ثم لا

عبرة بالذريعة الانسانية التي تستغلها اسرائيل، وهي انذاقوا من الوان الاضطهاد في العالم ، ولاسيما في المانيا الهتلرية،ما اوجب هجرتهم الى فلسطين وانشاء دولتهم فيهـــا . فاضطهاد اليهود في المانيا الهتلرية لا يبرر الاضطهاد الـذي حل بالعرب من جراء اسرائيل . ان رفع الضيم عن شعب ـ اذا صح ان هذا هو القصد ، وليس هذا هو القصـد ـ لا يبرر ابدا تحويل ذلك الاضطهاد الى شعب آخر والتنكيل به افظع تنكيل .

اذا ، فدولة اسرائيل هي في اصل وجودها عدوان سافر لا يتحمل ادنى تمحل للاعذار . وذلك يعني ان وجـــود اسرائيل غير شرعي ، ولا يمكن في حال ، ان يكتسب طابعا شرعيا الا برضى العرب ، وهو مستحيل .

وكون اسرائيل قاعدة استعمارية وذات سياسة عدوانية، انما هو نتيجة لاحقة لهذه الحقيقة الاساسية لان وجود اسرائيل في اصله ثمرة عدوان وغير شرعي.

وهذا المعنى يحتمله نص المقررات التي اتخذها المؤتمـر، لكنه لا يضمنه بالضرورة . فالدولة قد تكون في وقـــت قاعدة استعمارية ، وقد تسلك في وقت سياسة استعمارية الا ان ذلك لا يجعل اصل وجودها غير شرعي . بل يقضي بمطالبتها ان تكف عن سياستها العدوانية، وان ترفض ان تكون قاعدة استعمارية ، فان فعلت ، ان تغيرت طبيعة هـــذه الدولة نتيجة انقلاب داخلي او انتخابات نيابية او هزيمـة في حرب ، لم يجادل احد في حقها ان توجد . تلك دولة تركيا مثلا . انها اليوم قاعدة استعمارية . وهي تحـاول ان تمارس بازاء الجمهورية السورية والعرب سياسة عدوانية صريحة . لكن اذا امسكت تركيا عن ان تكون قاعـــدة استعمارية ، وعدلت عن السياسة العدوانية ، فمن ذا يجادل الاتراك في حقهم ان يعيشوا في وطنهم ، لانه حقـا وطنهم منذ اكثر من خمسة قرون ، وان يقيموا فـي هذا الوطن دولة قومية لهم ؟

لكن ليس هذا هو الواقع في امر اسرائيل ... لقـــد انذر الاتحاد السوفياتي قادة هذه الدول بأنهم يتلاعبـون بمصير الشعب اليهودي . وقادة هذه الدولة،اي الصهيونيون ما برحوا حقا يتلاعبون بمصير هذا الشعب .

فماذا يكون الموقف اذا كان للانذار السوفياتي ولوثبـة القومية العربية ، اثرهما ، فأزيح القادة الذين يتلاعبـــون بمصير الشعب اليهودي ، وبرز قادة يرون من المصلحـة ان لا تعير اسرائيل نفسها قاعدة للاستعمار او اداة للعدوان. ووافقوا حتى ان يعود بعض العرب المشردين الى وطنهم . فهل تصبح دولة اسرائيل شرعية ؟ كلا ، وألف كلا !

نحن لسنا من الذين يقولون بالانتقام من اليهـــود واضطهادهم . بل نحن نحارب هذه الفكرة باعتبارها غيـر انسانية ، وباعتبارها تسيء الينا قوميا . ولكننا نرفض حق الصهيونيين ، وحق اليهود ، وحق غيرهم ، ان يتدفقوا الى ارضنا تحت حماية الاستعمار ، ويشردونا عنهـــا ، ويقيموا لهم دولة فيها ، ويواجهونا ويشردونا عنهـــا ، عن الاستمرار في عدوانهم اذا اصبح مستحيلا عليهم ، واذا رأوا من الواجب ان يتبعوا سياسة انقاذ لما يمكن انقاذه من ثمار عدوانهم السابق .

ولا يبعد ان تكون هذه بالذات هي خطة اسرائيل ، ففي الوقت الذي تتشبث فيه بالمناطق التي احتلتها وراء خطوط التقسيم ، توعز الى اصدقائها ان يجسوا النبض بشـــأن تسوية تتنازل فيها عن هذه المناطق ـ يا للتساهل والكرم! ـ وتكسب صلحا مع العرب او اقرارا بشرعية وجودها ،وهو نهاية ما تطمح اليه .

اننا نصر على المطالبة بتصفية اسرائيل ولا مندوحة لنا عن المطالبة بتصفيتها ، لتقوم مقامها دولة عربية لفلسطين الموحدة،تعاد اليها اجزاؤها المفصولة ويعاد اليها عربها المشردون، مع من شاء من العرب ان يقطنوها لانها بعض وطنهم الكبير.

ذلك هو الحد الادنى الذي يمكننا قبوله . ذلك هو الحق المعتدل الذي نتمسك به ، ونتمسك باعادة النظر في هـذه الهجرة المصطنعة التي تدفقت على فلسطين في سبيـــل تجميع كثرة اسرائيلية فيها .

ونبقي هذا كله واضحا نصب اعيننا . فنهتف به عاليا في مسمع الدنيا كلها لاننا نرفض ان نتهم يوما بالعدوان ونحن لسنا بمعتدين.

ونعتبر ان هذه القضية حياتية لا بالقياس الى الشعـب العربي الفلسطيني وحده ، بل بالقياس الى القومية العربية جملة . فبقاء دولة في فلسطين ، اي دولة تتخذ صفـــة اسرائيل ، لا تؤذي الشعب العربي الفلسطيني وحده اذى في الصميم ، وانما تؤذي القومية العربية كلها ، اذ تفسد عليها وحدة ارضها ، وبالتالي تفسد عليها استكمال استقلالها وسيادتها وتحررها ووحدتها .

ان اسرائيل كيفما دارت الامور هي اسفين تشق بمجرد وجودها الوحدة العربية . وليس هذا بالذي يرضاه اي حر يؤمن بحق القوميات ان تسعى الى استكمال نمو ذاتهـــا بالوحدة .

لا ذنب للعرب اذا كانت فلسطين قد خرجت عن ان تكون اسرائيلية منذ نحو من الفي سنة ، اي قبل ان يظهر العرب على مسرح التاريخ العالمي بزمن طويل . ولا لوم على العرب اذا رفضوا ان تقوم في فلسطين دولة لاسرائيل في القـرن العشرين ، دولة تشردهم من وطنهم ، دولة تريد ان تلفق بالهجرة المصطنعة وبمحض الرابط الديني قومية عادمـــة الاساس .

ان مؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي قد اعلن باسـم اكثر من ثلثي البشرية ان دولة اسرائيل قاعدة استعمارية ذات سياسة عدوانية ، وطالب بحق اللاجئين العرب ان يعودوا الى وطنهم .

وليس هذا بالقليل .

ولكن دولة اسرائيل ، مع ذلك ، دولة غير شرعيـــة ، وللعرب وعلى العرب ان يصفوها دون ان يحسبوا معتدين. وفي رأينا انهم لا تعوزهم الامكانات لتحقيق هذا المطلب الحيوي من مطالبهم القومية .

رئيف خوري